﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف: 4 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإعْـــراضُ عـنِ اتِّباعِ ما أنزلَ اللهُ ظُـلْـمٌ لـلـنَّـفْسِ يَـعْـقُـبُـه الـعـذابُ والهلاكُ

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ في الآيةِ السَّابقةِ بالإنْذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القومَ بالقَبولِ والمتابعة؛ ذكرَ في هاتيْنِ الآيتَيْنِ ما في تركِ المتابعةِ والإعراضِ عنها من الوعيدِ مع المبالغةِ في إحلالِهِ بأهلِهِ، مبيِّنًا حالَ أولئكَ المعرضينَ عندما يأتيهمُ العذابُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَم﴾: هو عبارةٌ عنِ العدد، ويُستعمَلُ في بابِ الاسْتفهام، ويُنصَبُ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رجُلًا ضربتَ؟ ويُستعملُ في بابِ الخبر، ويُجَرُّ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رَجُلٍ! ويقتضي معنَى الكَثْرَة، وقد يدخلُ (مِنْ) في الاسْمِ الَّذي يُمَيَّزُ بعدَه، كما في قولِه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾[2].

2) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: القَرْيَةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهل القرية[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 117]، وقولُه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، فإنَّها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/198، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/356.
(2) الرّاغب، المفردات: (كم)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (كمم).
(3) وهو قولُ جُلِّ المفسِّرين، ويرى المبرِّدُ في كتابه: ما اتَّفق لفظُه واختلفَ معناه من القرآن المجيد، ص: 77، أنَّ المرادَ هنا القومُ أنفسُهم.

اسْمٌ للقرية[1]، فأصلُ هذه الكلمةِ من قولنا: قَرَى الماءَ في الحَوْضِ يَقْريهِ قَرْيًا، وقَرَّى: جَمَعَه، وقرَى الشَّيءَ في فمِهِ: جَمَعَهُ، وقُرْيانُ الماءِ: مُجتَمعُهُ[2].

3) ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: هَلَكَ: الهاءُ واللَّامُ والكافُ: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط، ومنه الهلاكُ: السُّقوط، ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ، وهلَك الشَّيءُ يَهلِكُ هلاكًا وهُلُوكًا ومَهْلِكًا، بفتح اللَّام وكسرِها وضمِّها، وتَهلُكةً بكسرِ اللَّام وضمِّها، والاسْمُ: الهُلكُ، والتَّهلُكةُ من نوادرِ المصادرِ لا تجري على قياس[3].

4) ﴿بَأْسُنَا﴾: بأْسٌ: الباءُ والهمزةُ والسِّينُ أصلٌ واحدٌ، والشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالْبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحربِ، ورجلٌ ذو بَأْسٍ وبَئيس، أي: شجاع، والبَأْسُ: العذاب، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديدٌ، والبَأْساءُ: الشِّدَّة، وبمعنَى الشِّدَّة جاءتْ كلمةُ (البُؤسُ)، أي: الشِّدَّة في العَيش[4]، وقولُه في الآية: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا[5].

5) ﴿بَيَتًا﴾: أَصْلُ البَيْتِ: مأوَى الإنسانِ باللَّيل؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ: أقامَ باللَّيل، وقد يُقالُ للمَسْكنِ: بيتٌ من غيرِ اعْتبارِ اللَّيلِ فيه، ويُقال: باتَ يفعلُ كذا؛ إذا فعلَهُ ليلًا[6]، فقوله تعالى: ﴿بَيَتًا﴾، أي: ليلًا في حالةِ النَّوم[7]، وعليه فالبَيَاتُ كلُّ ما كان بليْلٍ، وهو منصوبٌ على الوَقْتِ[8]. بَيَّتَ: قَدَّرَ بلَيْلٍ، يُقَال: بَيَّتَ فلَانٌ رَأْيَهُ؛ إذا فكَّر فِيهِ لَيْلًا، وَمِنْه قَوْله جلَّ وَعزَّ: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَتًا﴾. أَي: لَيْلًا. وَكَذَلِكَ بيَّتَهُمُ الْعَدوُّ، والبَيَاتُ: الْإِيقَاعُ بِاللَّيْلِ[9]، قال النَّحَّاس: "المعنى: فجاءهم العذابُ على غفلةٍ باللَّيلِ وهم نائمون"[10].

6) ﴿قَآئِلُونَ﴾: قِلْتُ قَيْلُولةً: نمتُ نصفَ النَّهارِ، أو موضعَ القَيْلُولةِ، والقائلةُ: الظَّهيرة، يُقالُ: أَتَانا عندَ القائلة، ومنه (القَيْلولةُ) وهي النَّومُ في الظَّهيرة، يُقالُ: قالَ قَيْلُولَةً ومَقيلًا

(1) الرّاغب، المفردات: (قرى)، والشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(2) الرّاغب، المفردات: (قرى)، وابن منظور، لسان العرب: (قرا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بأس).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/265.
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (بيت).
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/265، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(8) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/24.
(9) السّجستاني، غريب القرآن المسمّى بنزهة القلوب، ص: 119.
(10) النّحاس، معاني القرآن: 3/9.

فهو قائلٌ، والقَيْلُ: شِربُ نصفِ النَّهارِ[1]، "وقال اللَّيث: القيلولة: نومةُ نصف النَّهارِ، وهي القائلة، وقد قال يَقيل مَقيلًا، والمقيل أيضًا: الموضع، قال: وقالت قريشٌ للنَّبيِّ ﷺ، قبل أن يَفْتَحَ اللّه عليه الفتوح: إنَّا لأكرمُ مقامًا وأحسن مقيلًا، فأنزل اللّه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: 24]"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بهلاكِ القرى المكذِّبةِ على غفلةٍ منهم بليلٍ أو نهارٍ

حذَّر اللّهُ ﷻ عبادَه عقوباتِه للأُمَمِ الَّذين كذَّبوا ما جاءتهمْ به رُسُلُهم أنْ يُشابهوهم، فَيُصيبَهُم ما أصابَهم، وقد بيَّن تعالى أنَّ ذلك العذابَ الشَّديدَ جاءهم على حينِ غَفْلَةٍ، حيث لم يَخْطُرْ ببالهم الهلاكُ، ولذلك حين جاءهُمُ العذابُ لم يستطيعوا دفْعَه، ولا أَغْنَتْ عنهم آلهتُهُم الَّتي كانوا يَرْجونَها، ولم يُمَكَّنوا من إنكارِ ما كانوا يفعلونَه من الظُّلمِ والمعاصي، ولا كان دعاؤهم ربَّهُم عند نُزولِ العذابِ إلَّا اعترافًا بالظُّلم على أنفُسِهم، وحينها لا ينفَعهمُ الاعترافُ، ولا تُغني عنهم الضَّراعةُ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ على ما سبق:

غرضُ أسلوبِ التَّحذيرِ لكفَّارِ مكَّةَ، أن يَحلَّ بهم ما حلَّ بالغابرين

العطفُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، فيه تعريضٌ لأهلِ مكَّةَ الَّذين مَشَوْا على سَنَنِ تلكَ الأُممِ السَّابقةِ، في تكذيبِهم لدينِ اللّه، وإعراضِهم عن دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ، بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ، أولئك المكذِّبين الَّذين اتَّبعوا من دونِ اللّهِ أولياءَ[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (قيل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قيل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

فائدةُ مجيءِ (كم) الخبريَّة:

أفادتِ الكَثْرةُ في (كم) الخبريَّةِ في قوله تعالى ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بيانَ شُمولِ وقوعِ العذابِ، بأهلِ قرًى كثيرةٍ، كذَّبتْ وعاندتْ رُسُلَ اللَّه، وذلك بقصدِ العِبْرةِ والعِظَةِ لمن أتَى بعدَهم، ومنهم أهلُ مكَّة[1]، ومفاد المعنى في هذا الملمح: أنَّ اللَّه يقول: "لقد أهلكنا كثيرًا من القرى، بسبب عبادةِ أهلِها غيرَ اللَّه، وسلوكهم غير طريقه، وقد جاءهم عذابُنا في وقتِ غفلتِهم ليلًا، وهم نائمونَ، كما حدثَ لقومِ لوطٍ، أو نهارًا وهم مستريحونَ وقتَ القيلولةِ، كقومِ شعيب"[2]. قال الشَّعراويُّ: "وساعة تسمع (كَمْ)، فاعرف أنَّ المسألةَ خرجتْ عن العدِّ، بحيثُ تستوجبُ أن تستفهمَ عنها، وهذا يدلُّ على أمرٍ كثير فوق العددِ، لكن عندما يكون العددُ قليلًا، فلا يُستفْهمُ عنه، بل يُعرفُ"[3].

أفادَ التَّكثيرُ شمولَ العذابِ كَثِيرًا من القُرى الكافرة

فائدةُ مجيءِ الخبرِ في ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾:

جاءَ الخبرُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، لتهديدِ المشركينَ الَّذين وُجِّهَ إليهمُ التَّعريضُ في الآيةِ السَّابقةِ والَّذين قُصِدوا من العُموم، فثُلِّثَ هنا بِتَمْحيض التَّوجيه إليهم[4]، والغرضُ في الأساسِ، هو إتاحةُ الفرصة للعبرة، وإفساحُ المجالِ للعظة، وذلك أمرٌ متاحٌ في كلِّ العصور، وهو ما أشارَ إليه صاحب التَّفسيرِ الوسيط، منْ "أنَّ العاقلَ، هو الَّذي يحافظُ على أداء الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، ولا يأمن صفوَ اللَّيالي، ورخاءَ الأيَّام، بل يعيش حياتَهُ، وصلتُه بربِّهِ مبنيَّةٌ على الخوف والرَّجاءِ، فإنَّهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: 99]"[5].

الوعيدُ للمشركينَ بالخبرِ بغرضِ العبرةِ والعظةِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/320.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/32.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي (الخواطر): 7/44.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/19.
(5) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/46.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِّن﴾ في ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾:

إفـادةُ (مـن) التَّأْكِيدَ تزيدُ في الإبانةِ ما يفيدُ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ زائدةٌ[1]، وأفادَ وجودُها التَّأكيدَ والتَّمييز، أي: كم قريةٍ أهلكناها![2] والحرف الزَّائدُ ﴿مِّن﴾ يُبَيِّنُ توالي الهلاك عبر الأيامِ واللَّيالي في كثيرٍ من الأممِ الخوالي، وهو قانون سنَّهُ اللهُ لعقوبةِ من رفضَ الإيمانَ، وجاهرَ بالكفرانِ.

موقعُ لفظِ ﴿قَرْيَةٍ﴾ وتنكيرُه:

أفـادَ التَّـنـكـيرُ الـعـمـومَ والإحـاطـةَ والتَّكثيرَ

قولُه: ﴿قَرْيَةٍ﴾ اسمٌ مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا على أنَّه تمييزٌ[3]، كما أفادَ تنكيرُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ العمومَ والشُّمول، وخاصَّةً لِسَبْقِها بـ ﴿وَكَم﴾ الَّتي أفادتِ التَّكثيرَ، كأنَّ بيانَ اللهِ قال: وكثيرٌ من القُرى أهلكناها، أوْ ما من قريةٍ إلَّا أهلكناها[4].

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الـدَّلالـةُ على إرادةِ الـقـيـامِ بـالـفـعـلِ وعـلـى عزمِ الفاعلِ على الفعلِ

فعلُ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في معنَى الإرادةِ بحصولِ مَدْلولِه، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في ظاهرِ معناه، واسْتعمالُ أهلِها بما أصابَ القُرَى وأهلَها، ولأنَّ لتعليق فعلِ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالقريةِ دونَ أهلِها لقصدِ الإحاطةِ والشُّمول، غِنًى عن أدواتِ الشُّمول، فالسَّامعُ يعلمُ أنَّ المرادَ من القرية أهلُها؛ لأنَّ العبرةَ والموعظةَ إنَّما هي بما حصلَ لأهلِ القرية، ونظيرُها قولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ونظيرُهما معًا قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الأنبياء: 6]، فكلٌّ هذا من الإيجازِ البديع، والمعنَى على تقديرِ المضاف، وهو

(1) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

تقديرُ معنى[1]. ويمكن أن يكونَ على سبيلِ المجازِ العقليِّ حيثُ أسندَ الإهلاكَ إلى القريةِ، وأرادَ أهلها لعلاقة الحاليَّة والمحليَّة.

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾:

أفادَ العطفُ بالفاءِ التَّرتيبَ بين الفعلِ وسببِه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ عاطفةٌ لجملتِها على جملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، وأصلُ العاطفةِ أن تُفيدَ ترتيبَ حصولِ معطوفِها بعد حصولِ المعطوفِ عليه، والإتيانُ بحرفِ التَّعقيبِ (الفاء) للدَّلالةِ على عدمِ التَّريُّث، وحصولِ الفعلِ بعدَ سببِه. وقد يكونُ التَّرتيبُ في فاءِ العطفِ التَّرتيبَ الذِّكريَّ، أي: ترتيبَ الإخبارِ بشيءٍ عن الإخبارِ بالمعطوفِ عليه، ففي الآية أخبرَ عن كيفيَّةِ إهلاكِهم بعد الخبرِ بالإهلاك، وهذا التَّرتيبُ هو في الغالب تفصيلٌ بعد إجمال، فيكونُ من عطفِ المفصَّلِ على المجمَل[2].

عِلَّةُ تقديمِ الإهلاكِ على مجيءِ البأسِ في الآيةِ الكريمةِ:

المرادُ إرادةُ الإهلاكِ لإفادةِ العزمِ على القيامِ بالفعل

كيف يتقدَّمُ ذكرُ الإهلاكِ على ذكرِ البأس، والإهلاك حاصلٌ بعدَه أو معه؟ والجوابُ: هو أن قولَه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، معناه: أَرَدْنا إهلاكَها كقولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، أي: أردتُم القيامَ إلى الصَّلاة[3]، والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفعلِ، بذكرِ الصِّيغةِ الَّتي تدلُّ على وقوعِ الفعلِ، يكونُ لإفادةِ عزمِ الفاعلِ على الفعل عزمًا لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19، ومن المفسّرين من يرى عدم الحاجة إلى تقدير المضاف، كالزَّمخشري في الكشَّاف: 2/67، وحيث قال: "فإن قلتَ: هل يُقدَّرُ حذفُ المضاف الَّذي هو الأهل قبل قرية أو قبل الضَّمير في أهلكناها؟ قلتُ: إنَّما يقدَّر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإنَّ القرية تُهلَك كما يُهلك أهلُها". وهذا مَنحى السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/248. والتَّعبيرُ بالقرية؛ لأنَّها أعظم في العقوبة إذا هلكَ البشر وقريتهم، وخاصَّة أنَّه بيَّن آخر الآية بقوله: ﴿أَوۡ هُمۡ﴾ أنَّ البشر داخلون في الهلاك، ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/373.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20. ولمَّا لم يقعِ الاتِّفاقُ بين بعض المفسّرين، على موقع الفاء هنا، نتج عنه اختلافٌ في تكييف موقع الجملة بمفرداتها، فالفرَّاء لا يرى أنَّ الفاء تفيد التَّرتيب، ولذلك قال: "يُقال: إنَّما أتاها البأس قبل الإهلاك، فكيف تقدَّمَ الهلاك؟ قلت: لأنَّ الهلاكَ والبأس يقعان معًا، كما تقول: أعطيتني فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبلَه، إنَّما وقعا معًا، فاستجيزَ ذلك، وإن شئت كان المعنَى: وكم من قريةٍ أهلكناها فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان وإنَّما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى"، يُنظر: الفرّاء، معاني القرآن: 1/371.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والعكبري، الإملاء: 1/268، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199.

يتأخَّرُ عنه العمل، بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حصولِ المرادِ للإرادةِ لتشابههما[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل (فجاءها):

في قوله تعالى ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾، البَأسُ ما يحصُلُ به الألم، وأكثرُ إطلاقهِ على شدَّةِ الحساب، ولذلكَ سُمِّيتِ الحربُ البأساءَ، واسْتُعير المجيءُ لحدوثِ الشَّيءِ وحصولِه بعد أنْ لم يكن تشبيهًا لحُلولِ الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى مكانٍ بتنقُّلِ خطواتِه[2].

اسْتُعيرَ البأسُ لبيان شدَّةِ الحرب واشتدادِ أوارها

المواقعُ النَّحويّةُ لـ ﴿بَيَٰتًا﴾ بناءً على معنَى البَأسِ:

قولُه تعالى: ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدرٌ منصوبٌ على الحالِ من البَأس بمعنَى بائتين، أي: جاءهُمُ البأسُ مُبَيِّتًا لهم، أي: جاءهُمْ ليلًا[3]، ويُطلقُ البَيَاتُ على ضَرْبٍ من الغارةِ تقعُ ليلًا، فإن كانَ المرادُ من البأسِ الاسْتعارةَ لشدَّةِ الحرب - كما تقدَّم آنفًا - كان المرادُ من البياتِ حالةً من حالِ الحرب، هي أشدُّ الغَزْوِ[4]، ويجوزُ أن يكونَ ﴿بَيَٰتًا﴾ منصوبًا على النِّيابةِ عن ظرفِ الزَّمان، أي: في وقت البَيَات[5]، ويجوزُ أنْ يكون مفعولًا له[6].

تنوُّعُ الموقعِ الإعرابيّ، يُفسحُ المجال لتنوُّع المعنى وتأويلاته

معنَى ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

لفظ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتَّنويعِ وتفصيلِ الجُمَل، أي: لتقسيمِ القُرى المُهلَكَة، أي: جاءَ إلى بعضِهم بأسُنا وإهلاكُنا ليلًا، وإلى بعضِهم الآخرِ نهارًا، وإنَّما حذفوها لاسْتثقالهم نَسَقًا على نَسَق[7]، والمقصودُ من هذا التَّقسيمِ تهديدُ أهلِ مكَّةَ، حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كُلِّ وقتٍ

تنوُّعُ العقابِ وزمانه، يدلُّ على مطلقِ قدرةِ اللهِ في التَّصرُّف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20 - 21.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/249.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.
(6) الإملاء للعكبريّ: 1/268، والدُّرُّ المصون: 5/250.
(7) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والعكبري، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250.

لا يَدْرونَ متَى يَحِلُّ بهمُ العذاب، بحيث لا يَأْمنونَ في وقتٍ ما[1].

ويمكنُ أنْ يكونَ معنَى (أو) للتَّخييرِ أوِ الإباحة، أي: إنَّ (أوْ) دخلتْ هنا على جهةِ تصرُّفِ الشَّيءِ ووقوعِه، إمَّا مرَّةً كذا، وإمَّا مرَّةً كذا، فهي في الخبر هَاهُنَا بمنزلة (أوْ) في الإباحة، تقولُ: جالسْ زيدًا أوْ عمرًا، أي: كلُّ واحدٍ منهما أهلٌ أنْ يُجالَس[2].

سرُّ العدولِ عنِ (الواو) إلى ﴿أَوْ﴾ في قوله ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾:

العدولُ مفيدٌ عندَ الاستثقالِ وسنوحِ مبدأِ التَّخييرِ

حُذفت الواوُ من الحالِ المعطوفة على أختها، أي: فجاءها بأسُنا بَيَاتًا وهم قائلون، وأُبدلتْ بـ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ وذلك استثقالٌ لاجتماع العاطِفَين، فإنَّ واوَ الحال حرفُ عطفٍ قدِ اسْتُعيرتْ للوَصْل، لا اكتفاءً بالضَّمير كما في: جاءني زيدٌ هو فارس، فإنَّه غيرُ فصيح، وإنَّما الفصيحُ أن يُقال: جاءني زيدٌ وهو فارسٌ[3]. و﴿أَوْ﴾ هَاهُنَا أحسنُ من (الواو)؛ لأنَّ الواوَ تتضمَّنُ اجتماعَ الشَّيئَيْن، لو قلتَ: ضربتُ القومَ قيامًا وقعودًا؛ لَأَوْجَبَت الواوُ أنَّكَ ضربتَهم وهم على هاتَيْنِ الحالتَيْن، وإذا قلتَ: ضربتُهم قيامًا أوْ قعودًا، ولم تكنْ شاكًّا، فإنَّما المعنَى: أنَّكَ ضربتَهم مرَّةً على هذه الحال، ومرَّةً على هذه الحال، وهذا هو المرادُ هنا في هذه الآية[4].

نكتة التّعبير بالحالِ المفردِ ﴿بَيَٰتًا﴾ والحالِ الجملة ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾:

من البيانِ الفصيحِ العدولُ من صيغةٍ إلى أخرى للإبانة والتَّوضيحِ

قولُه تعالى: ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ لعطفِها على ﴿بَيَٰتًا﴾، بـ﴿أَوْ﴾[5]، كلتاهما واقعتان في موقع نصبٍ على الحال، وهذا العدولُ بسببِ وضعِ الجملة مع صاحبِ الحال، هل هي وصفٌ له، أو فيها زيادةٌ على وصفه؟ فكلا القولَيْن: ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿هُمْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/372، والزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/321.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.

﴿قَآئِلُونَ﴾ حال، لكنَّ الأوَّلَ مفردٌ والثَّاني جملة، وإذا كانت جملةُ الحالِ اسْميَّةً، وهي إمَّا أن تكونَ مُنحلَّةً إلى مفردَيْن: أحدُهما وَصْفُ صاحبِ الحال، فهذه تجرُّدُها عن الواو قبيحٌ؛ لأنَّ الأصلَ في فصيحِ الكلامِ أنْ يُجاءَ بالحالِ مفردةً؛ إذْ لا داعيَ للجملة، نحوَ: جاءني زيدٌ هو فارسٌ؛ إذ يعني أنْ تقولَ: فارسًا، وأمَّا إذا كانتِ الجملةُ اسميَّةً فيها زيادةٌ على وصفِ صاحبِ الحال، وفيها ضميرُ صاحبِ الحال، فخلُوُّها عن الواو حسنٌ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ حذفُ الواوِ بين الحالَيْنِ هنا، لدفعِ اسْتثقالِ توالي حَرْفَيْنِ من نوعٍ واحد[2].

سرُّ اخْتيارِ وقتَيِ البياتِ والقيلولةِ دونَ غيرِهما:

تحديدُ وقتي الرَّاحةِ لنزولِ العذابِ، أدْعى لتصوُّرِ عظمِ المفاجأةِ

خصَّ بيانُ اللّهِ تعالى هذيْن الوقتيْنِ بالذِّكر: وقتَ البَيَاتِ، ووقتَ القَيْلولة؛ لأنَّهما وقتا الغَفْلةِ والدَّعة، فيكونُ نزولُ العذابِ فيهما أَشَدَّ وأفظع[3]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنغِّصُ على المكذِّبينَ استمراء نعيم الوقْتَيْن، كأنَّ بيانَ اللّهِ تعالى يقول: يا معشرَ أهلِ مكَّة كونوا على حذَرٍ أن نُصيبَكم مثلَ ما أصابهم، فإنَّكم وإيَّاهم سواءٌ[4].

معنَى الفاءِ في جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ أوِ المعنويِّ، وكلاهما مُهمَّان في تجليَةِ المعنى

يصحُّ أن تكونَ الفاءُ هنا للتَّرتيبِ الذِّكريِّ تَبَعًا للفاءِ في قولِه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾؛ لأنَّه من بقيَّةِ المذكور، ويصحُّ أن تكونَ للتَّرتيب المعنويِّ؛ لأنَّ دعواهُم ترتَّبتْ على مجيءِ البأس[5]، وفي كلا التَّأويلين فإنَّ الخطب جللٌ، والبأس حاصلٌ بقرارٍ قَدَريٍّ تدبِّره القدرةُ الإلهيَّة العليا، لتُحِلَّ العذَاب بكلِّ من كذَّبَ بالكتاب، وما يسعُهُمْ حينها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/67، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/331.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.

إلَّا الاعترافُ بظُلْمِهم، والإقرار بما كانوا يقولون ويفعلون، ومعنى السِّياق: أنَّهم "لم يقدروا على ردِّ العَذاب، حِين جَاءَهُم العَذَاب، وَكَانَ حَاصِلُ أَمرهم أَن اعترفوا بالخيانة حِين لَا ينفعُ الِاعْتِراف"[1].

دَلالةُ التَّركيبِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾:

اعـترافُ الكفرةِ ببطلانِ شركِهم وظُلمِهم دليلٌ على أنَّ الباطلَ كان زهوقًا

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنَّهم لم يُحصِّلُوا ممَّا كانوا يَنْتحِلونَه من مذهبِهم وطريقتِهم ومنهجِهم في ادِّعاء أنَّهم على حقٍّ في تعدُّدِ آلهتِهم، وأنَّ عبادتَهم لها حقٌّ - إلَّا الاعترافَ بأنَّهم مُبطِلونَ ظالمون[2].

بلاغةُ القَصْرِ في الاستثناءِ بعدَ النَّفي:

الاعـــــترافُ بـالاقـترافِ سيِّدُ الأدلَّةِ مهما تكن التَّعِلَّةُ

جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ من قبيل القصر المكوّن من استثناء بعد نفي، وهو قصرٌ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، فيه بيانُ أنَّ ذلكَ القولَ بعد نَفْيِ الدَّعوَى مقدِّمةُ التَّوبة؛ لأنَّ التَّوبةَ يتقدَّمُها الاعترافُ بالذَّنب، فهمُ اعْترفوا على نيَّةِ أن ينتقلوا من الاعترافِ إلى طلبِ العفو، فعُوجِلوا بالعذاب، فكانَ اعترافهم - وهو آخرُ قولهم في الدُّنيا - مقدِّمةً لشهادةِ ألسنتِهم عليهم في الحشر، وبيانًا لعنادِهم وكِبْرِهم اللَّذَيْن كانا يَصُدَّانِهم عن الإقلاعِ عن ظُلْمِهم[3].

دَلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ في قوله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾:

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُوا۟﴾، هو اسْمُ كان الَّذي أُفْرِغ له عملُ كان، وهو المترقَّبُ من السَّامعِ الاهتمامُ به ابتداءً، كأنَّ السَّامعَ يسأل: ماذا قالوا لَمَّا جاءهمُ البأس؟ فقيل له: كان قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دعاءَهُمْ، فأُفيدَ القولُ، وزيدَ عليه بأنَّهم فرَّطوا في الدُّعاء[4].

المصدرُ وإنْ تأخَّر ذكرُه، فَالِاهْتِمَامُ بِـهِ هُـوَ المُـعَـوَّلُ عَلَيْهِ في السِّياقِ

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/24.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/25.

نكتةُ تقديمِ خبرِ كان ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ على اسمِها: ﴿أَن قَالُواْ﴾:

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُواْ﴾، هو اسمُ ﴿كَانَ﴾، وكلُّ موضعٍ جاء فيه المصدرُ المؤوَّلُ من أنْ والفعلِ محصورًا بعد كان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 82]، هو استعمالٌ مُلْتَزِمٌ غريبٌ، مُطَّردٌ في كلِّ ما وقعَ فيه جزءُ الإسنادِ، ذاتَيْ أُريدَ حَصْرُ تحقُّقِ أحدِهما في تحقُّق الآخر؛ لأنَّهما لما اتَّحدَا في الماصَدَق، واسْتويا في التَّعريف، كان المحصورُ أوْلى باعتبار التَّقدُّم الرُّتْبِيِّ، ويتعيَّنُ تأخيرُه في اللَّفظ؛ لأنَّ المحصورَ لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأيْن[1].

المحصورُ أولى بالتَّقدُّمِ الرُّتْبِيِّ، وهو لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأيْن

معنَى (الدَّعوى) ونكتتُها في نوعِ الاسْتثناءِ بين الاتِّصالِ والانْقطاع:

الدَّعْوَى: اسْمٌ بمعنَى الدُّعاء، كقولِه تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10]، وهو كثيرٌ في القرآن، والدُّعاءُ هنا لرفعِ العذابِ، وذلكَ أنَّ شأنَ النَّاسِ إذا حلَّ بهم العذابُ أن يَجْأروا إلى اللهِ بالاسْتغاثة، ومعنَى الحصرِ أنَّهم لم يستغيثوا باللهِ، ولا توجَّهوا إليه بالدُّعاء، ولكنَّهم وضَعوا الاعْترافَ بالظُّلم موضعَ الاسْتغاثة، فلذلكَ اسْتثناهُ اللهُ من الدَّعوى. ويجوزُ أن تكونَ الدَّعوَى بمعنى الادِّعاء، أي: انْقطعتْ كلُّ الدَّعاوَى الَّتي كانوا يَدَّعونَها من تحقيقِ تعدُّدِ الآلهةِ، وأنَّ دينَهم حقٌّ، فلم تبقَ لهم دَعْوى، بلِ اعْترفوا بأنَّهم مُبطِلون، فيكونُ الاسْتثناءُ مُنقطعًا؛ لأنَّ اعْترافَهم ليس بدَعْوَى[2]، والمقصودُ بها هَاهُنَا يَحْتَمِلُ الأمرَيْنِ جميعًا، ويَحتمِلُ أيضًا أنْ يكونَ بمعنَى الاعْتراف[3]، قال ابن الأنباريِّ: وللدَّعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الادِّعاءُ. والثَّاني: القول والدُّعاء. قال الشَّاعر:

دلالـةُ الـدَّعـوى بمعنَى الدُّعاءِ، ودلالتُها بمعنى الادِّعاءِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/318 - 319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/374، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/254.

إِذَا مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي *** بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُونُ[1]

معنَى لفظِ ﴿إِذْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

ظـرفُ الـزَّمـانِ مـهـمٌّ لتحديدِ حيثيَّات الدّلالةِ في وصفِ الحالةِ

﴿إِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ بمعنَى (حين) وهي ظرفُ زمانٍ منصوبٌ بـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾[2]، والظَّرفيَّةُ مرتبطةٌ هنا بالدَّعوى عند نزول البأس، ومعنى دعواهم، أي: دعاؤهم، "قَالَ سيبويهِ: تَقول: اللَّهُمَّ اجْعَلنِي فِي دَعْوَى الْمُسلمين، أَي: فِي دُعَاء الْمُسلمين، فَقَوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مَعْنَاهُ: لم يقدروا على ردِّ الْعَذَاب حِين جَاءَهُم الْعَذَاب، وَكَانَ حَاصِل أَمرهم أَن اعْتَرَفُوا بالخيانة"[3]، وهذا أمرٌ تحكمه ملابساتُ الأوانِ، ومقتضياتُ الظَّرفِ الَّذي تزامن مع وقوعِ العذاب، حيث لا مفرَّ منه، ولا مندوحةَ عنه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

مـجـيءُ الـبـأسِ يستعارُ لحصولِ الـشَّيءِ القادمِ، ووقوعِ آثارِهِ

كلمةُ البأسِ تُوحي بالشِّدَّةِ الَّتي يحصل بها، ومعها الألمُ والعذاب، ولذلكَ اسْتُعيرَ هنا في هذا المقامِ المجيء للبأس، بمعنى حدوث الشَّيءِ ووقوعِه، بعد أن لم يكن، وذلك تشبيهٌ لحلول الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى آخر، وكأنَّ لَهُ قدمين يتنقَّل بهما[4].

موقعُ الجملةِ الاعْتراضيَّة ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، وبلاغتُها:

نـزولُ الـعـذابِ متحقِّقٌ على الـظَّـالـمـينَ، ولـو اعْـتـرفـوا واسْتغاثوا

جاءتْ جملةُ: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ اعتراضيَّةً بين قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، وهم في حالِ دعائهم واسْتغاثتِهم ربَّهم، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، باعترافِهم بظُلمِهم، وتَندُّمِهم وتحسُّرِهم على كُفرِهم وشركِهم، وما بين الجُملتَيْن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/102، والبيت غَيْرُ مَعْزُوٍّ إلى قائله، يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة: 14/435، وابن منظور، اللسان: (مذل)، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/254، ومعنى (مذِلَتْ): خَدِرَت.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.

إيذانٌ بِنُزولِ العذابِ عليهم، وأنَّ هذا العذابَ لا يَنزِلُ إلَّا على الظَّالمين[1].

غرضُ الخبرِ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مـفـادُ الـخـبرِ إنـشـاءُ الإقـرارِ عـلـى أنـفـسِـهـم بالظُّلم

صيغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، تُومِئُ إلَى الإقْرَارِ المحضِ على أنفسِهم بالظُّلم، فهو خبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإقرار، وهو إقرارٌ مَشوبٌ بحسرةٍ وندامة[2]، والمعنى: "﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي: إلَّا اعترافَهم بظلمهم، فيما كانوا عليه، وشهادتَهم ببطلانِه، تحسُّرًا عليه وندامةً، وطمعًا في الخلاص، وهيهاتَ ولاتَ حين نجاة"[3].

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

غـرضُ الـتَّـأكـيدِ تـحـقُّـقُ ظـلـمِ الـمـشـركـيـن، والعبرةُ والعظةُ للمخاطَبين

جاءتِ المؤكِّداتُ لتحقيق الظُّلم للنَّفس، وإثباتِه وبيانِ اتِّعاظ المُخَاطَبين، فمِنَ الأوَّلِ بيانُ أنَّهم ظلموا أنفسَهم بالعنادِ وتكذيبِ الرُّسُل، والإعراضِ عن الآيات، وصمِّ الآذانِ عن الوعيدِ والوعظ، وذلك يجمعُه الإشراكُ باللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13].ومن الثَّاني وهو بيانُ موضعِ الاعْتبارِ للمخاطَبين بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 3]، أي: إنَّ اللّه لمْ يظلمْهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النَّحل: 33] وهو يجمعُ الأمرَيْن معًا: تأكيدَ ظُلمهم لأنفُسِهم، وعدمَ ظُلمِ اللّهِ لهم، لِيَنْأَى المخاطَبونَ عن ظُلمِهم لأنفُسهم، فَيتَّعظُوا ويَعتبِرُوا[4].

بلاغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

بـلاغـةُ اجـتـمـاعِ الـمـعـنـيَـيْـنِ الـمـجـازيِّ الـصَّـريـحِ والكِنائيِّ

الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مُستعمَلٌ في معناه المجازيِّ الصَّريحِ، ومعناهُ الكِنائيِّ، والمعنَى المجازيُّ هنا يجتمعُ مع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/24.

الكنايةِ، باعْتبارِ كونِه مجازًا صريحًا. وهذا القولُ منهم يقولونَه لغيرِ مُخاطَبٍ مُعيَّنٍ، كشَأْنِ الكلامِ الَّذي يجري على اللِّسانِ عندَ الشَّدائد، كالوَيْلِ والثُّبُور، فيكونُ الكلامُ مُستعمَلًا في معناهُ المجازيِّ، أوْ يقولُه بعضُهم لبعضٍ بينَهم على معنَى التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على الخطأ، وإنشاءِ النَّدامة، فيكونُ مُستعمَلًا في المعنَى المجازيِّ الصَّريح، والمعنَى الكِنائيِّ كما تقدَّمَ آنفًا[1].

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

إفادةُ اعترافِهم بشركِهم الَّذي هو أَقْبحُ الظُّلم

جَرَى قولُه تعالى: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ مَجْرَى التَّعليلِ لنزولِ البأسِ بهم، والاعْترافِ بأنَّهم جَديرونَ به لا مَحالة، فهم ظالمون بِشركهم، وأيُّ ظلم أَشْنعُ من الشِّرك! ولذلك أَطْلقوا على الشِّركِ حينئذٍ الاسْمَ المُشْعِرَ بِمَذَمَّتِه الَّذي لم يكونوا يُطلقونَه على دينهم من قبل[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(القَرْية) و(المدينة):

القَرْيةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، أي: أهلَ القَرْية[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ: القومُ أنفُسُهم، وجمعُ القرية: القُرَى، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 117] [4].

القريةُ: النَّاسُ ومكانُ اجْتماعِهم، وهي أجدرُ في الاستعمالِ في هذه الآيةِ

والأَصْلُ في كلمةِ (القرية) من قولِنا: قَرَيْتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعتُه، وقَرَى الشَّيءَ في فمِه: جَمَعَه، وقُرْيانُ الماء: مُجتَمَعُه[5].

وأمَّا المدينةُ: ففَعيلةٌ عندَ قوم، وجَمْعُها مُدُنٌ، ومَدَائنُ، ومُدْنٌ، ومُدُنٌ، وقد مَدَنْتُ مَدينَةً، وناسٌ يجعلونَ الميمَ زائدة، قالَ تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(3) الرّاغب، المفردات: (قرى).
(4) المبرِّد، ما اتَّفق لفظُه واخْتلفَ معناه، ص: 77.
(5) الرّاغب، المفردات: (قرى)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرا).

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [: 101]، ومَدَنَ بالمكان: أقامَ به، وقيل: هي من دِينَتْ، أي: مُلِكتْ[1]، ومن بيانِ الفرقِ بينَ الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ كلمة (القرية) أَوْلى بالسِّياق من كلمة (المدينة) حيث المرادُ - كما سبق - أهلُ القَرْية، والقَرْيةُ نفسُها.

(البأس) و(العقاب) و(العذاب):

البأس: الشِّدَّةُ في الحرب، ويجري على العُدَّة من السِّلاح وغيرِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: 25]، ويُستعمَلُ في موضعِ الخَوْف مجازًا، فيُقالُ: لا بأسَ عليك، أي: لا خوفَ عليك، ولا بأسَ في هذا الفعل، أي: لا كراهةَ فيه، والبأسُ: العذاب[2]. والعقابُ: يُنبِئُ عن اسْتحقاقٍ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّه عقيبَ فعله، ويجوزُ أنْ يكونَ العذابُ مُستحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، وأصلُ العقاب: التُّلُوُّ، وهو تأديةُ الأوَّلِ إلى الثَّاني، يُقال: عَقِبَ الثَّاني الأوَّلَ؛ إذا تلاه، وعَقِبَ اللَّيْلُ النَّهارَ، واللَّيلُ والنَّهارُ عَقيبان، وأَعْقَبَه بالغِبْطةِ حَسْرةً إذا أبدَله بها، وفي التَّنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النّمل: 10]. والعقابُ يقتضي بظاهرِه الجزاءَ على فعلِ المعاقَب؛ لأنَّه من التَّعقيب والمعاقَبة[3]، والعذابُ ليس كذلك، إذْ يُقال للظَّالمِ المُبتَدِي بالظُّلم: إنَّه معذَّب، وإنْ قيلَ: مُعاقَب، فهو على سبيلِ المجازِ لا الحقيقة، فبينَهما عمومٌ وخُصوص[4]. والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، وقد عذَّبَه تعذيبًا: أكثرَ حَبْسَه في العذاب، قالَ تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النَّمل: 21]، وأصلُ العذاب: هو من قولِهم: عَذَبَ الرَّجُلُ: إذا ترك المأكلَ والنَّوم، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمْلُ الإنسانِ أنْ يُعذَّب، أي: يجوعَ ويَسْهَر. وقيل: أَصْلُه من الضَّرْب،

البأسُ: الشِّدَّةُ مع العذابِ، ويناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ الَّذي وردَ في السِّياق

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (مدن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/328، والعسكريّ، الفروق، ص: 89.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 364، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (عقِبَ).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 365.

وقيل: عذَّبْتُه: كدَّرْتُ عيشَه[1]. والَّذي يظهرُ جليًّا من بيان الفروق بين تلكُمُ الكلمات أنَّ (البأْسَ) أشدُّها وطئًا، وأقومُها قيلًا، فيما يناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ، والإهلاكِ الَّذي وردَ في السِّياق.

(بَيَاتًا) و(قَائِلُونَ):

البَيْتُ: مأوى الإنسانِ باللَّيل، ومعنَى باتَ: أظلَّهُ المَبيتُ، وأَجَنَّهُ اللَّيل، سواءٌ نامَ أم لم ينَم، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: 64][2]. وأمَّا القَيلولة: فهي النَّوْمُ في الظَّهيرة، أي: في نصفِ النَّهار، ولذلكَ كانَ لكلِّ كلمةٍ ما تختصُّ به من وقت، فالبياتُ يكونُ في اللَّيل وهو وقتُ الرَّاحةِ والدَّعَة، والقَيْلولةُ تختصُّ بالنَّومِ في مُنتَصفِ النَّهار، وهو وقتُ الرَّاحة كذلك، فلا كلمةُ اللَّيلِ تُجْزئُ في ذِكْرِها عن كلمةِ ﴿بَيَـٰتًا﴾، ولا كلمةُ النَّهار تُجزىء عن كلمةِ ﴿قَآئِلُونَ﴾. فاخْتيارُ السِّياق لِتَيْنِكَ الكلمتَيْن أَوْلى وأَوْفَى به من غيرِهما من الكلمات.

البياتُ: الرَّاحةُ في اللَّيل، والقيلولةُ: النَّوم والرَّاحةُ في نصفِ النَّهار

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (عذب).

(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 318، والكفويّ، الكلّيات: 4/368، ولامنس، الفرائد، ص: 34.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»